حين عاد الصوت إلى حجمه

قصة متخيّلة مستوحاة من مقال الأستاذة هدى بركات
«حين يتذكر الجسد ما نسيه العقل»

لم تسقط الكأس من يد مريم، لكنها اضطرت إلى وضعها على الطاولة كي لا يلاحظ أحد ارتجافها.

من خلفها، ارتفع صوت زميلها يوسف:

- مريم! أين الملف؟ الاجتماع سيبدأ!

عرفت أين وضعته. ومع ذلك، عجزت لحظةً عن الإجابة. انقبضت معدتها، وارتفع كتفاها، وخرج صوتها ضعيفاً:

- آسفة... سأحضره.

لم تكن قد أضاعت شيئاً، لكنها اعتذرت.

في البيت الذي كبرت فيه، كان ارتفاع الصوت يسبق الإهانة غالباً. تعلمت يومها أن تصمت، وأن تعتذر بسرعة، حتى لو لم تعرف خطأها. لم تتذكر ذلك كله أمام يوسف؛ شعرت فقط بأنها تريد الاختفاء.

بعد الاجتماع، جلست إلى جوارها زميلتها أمينة:

- لاحظت أنك تضايقت. هل تحبين أن تخبريني؟

قالت مريم، وهي تنظر إلى أصابعها:

- غضبت من نفسي أكثر مما غضبت منه. لماذا أخاف من أمر بسيط؟

- بدا بسيطاً لي، لكنه كان ثقيلاً عليك. لا يلزم أن توبخي نفسك أيضاً.

بقيت الجملة معها حتى المساء.

حين عاد الصوت إلى حجمه

كانت مريم قد بدأت لقاءات مع مختصة بعدما صار القلق يرهق نومها وعملها. وفي اللقاء التالي سألتها:

- كيف أطمئن جسدي إلى أنني لم أعد في ذلك البيت؟

تحدثتا عما وقع: ماذا قال يوسف فعلاً؟ هل أهانها؟ هل تستطيع أن تطلب منه تغيير طريقته؟ لم يكن المطلوب أن تقنع نفسها بأن كل شيء آمن، بل أن تنظر إلى الموقف الحالي وتختار ما تحتاج إليه.

في اليوم التالي، انتظرت حتى هدأ المكتب وقالت له:

- عندما تناديني بهذه الحدة أتوتر. يمكنك أن تطلب الملف بصوت أهدأ.

توقعت جدالاً. لكنه قال:

- معك حق. كنت مستعجلاً، ولم أنتبه لطريقتي.

لم يختفِ خوفها بعد ذلك الحديث. في مرات أخرى عادت الرجفة، لكنها بدأت تلاحظ أيضاً أن بإمكانها أن تتكلم، وأن الاعتراض لا ينتهي دائماً بالعقاب.

وبعد أسابيع، سخرت زميلة من ارتباكها أمام الآخرين. هذه المرة قالت مريم:

- يمكننا مناقشة العمل، لكنني لا أقبل السخرية مني.

ثم أنهت الحديث. لم تُجبر نفسها على البقاء كي تثبت أنها أصبحت أقوى.

في المساء، فتحت دفترها. كتبت أولاً: «ما زلت أخاف». تأملت العبارة، وأضافت تحتها: «واليوم دافعت عن نفسي رغم ذلك».

وبعد أيام، ناداها يوسف من آخر المكتب. تحرك الخوف القديم قليلاً، فالتفتت. كان يسأل إن كانت تريد فنجان قهوة.

قالت: «نعم، شكراً»، ثم عادت إلى عملها. وفي تلك المرة، بقي الصوت في حجمه: سؤالاً عن القهوة، ولم يتحول إلى حكم عليها.